الحجاج الفلسفي التداولي صُورته المناظرة الإسلامية
قراءة في أصول الحوار وتجديد علم الكلام للدكتور طه عبد الرحمن

طالبة الدكتوراه: مقدم فاطمة
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة
إشراف أ.د ناصر اسطمبول

الملخص:

يرى الفيلسوف طه عبد الرحمن أنّ **الحجاج الفلسفي التداولي** هو «فعالية استدلالية خطابية، مبناها عرض رأي، أو الاعتراض عليه، ومرماها إقناع الغير بصواب الرأي المعروض أو ببطلان الرأي المعترَض عليه استنادًا إلى مواضعات البحث عن الحقيقة الفلسفية "وهذا مما يجعل الحجاج الفلسفي التداولي بناءً مثنويًا تقابليًا يتواجه فيه عارض ومعترض، بحيث يتوجه فيه كلّ منهما بآليات إقناعية خاصة وحقوق وواجبات محددة؛ هذه المقابلة المثنوية من شأنها إنْ تغير تصديقات أو اعتقادات المتقابلين، علمًا بأنّ تغيير شيء ما بهدف مقصود هو ما يصطلح عليه باسم "الفعل"؛ وما دام التغيير التصديقي أو الاعتقادي متبادَلاً بين المتقابلين في الحجاج الفلسفي، فإنّ هذا الحِجَاج يتحددُ بوصفهِ عمليةُ مفاعلة.

وهكذا توصل الدكتور طه عبد الرحمن إلى أنّ كلّ خطاب استدلالي يقوم على «المقابلة" و"المفاعلة" الموجهة يُسمَّى "مناظرة"؛ وينبني علي هذا التعريف أنّ "المناظر" من كان عارضًا أو معترضًا، وكان لعرضه أو اعتراضه أثر هادف مشروع في تصديقات غيره عارضًا كان أو معترضًا.

وتأسيسًا على ما سبق ذكره، ارتأيت أن تكون دراستي حول ما ذهب إليه الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"، على أنّ الحجاج الفلسفي التداولي صورته المناظرة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الحوار، الجدل،الكلام، الفلسفي، التداولي، المناظرة.

Abstract:

Philosopher, Taha Abdul Rahman believes that the pilgrims philosophical Deliberative is «the effectiveness of the evidentiary rhetoric, its building view view, or challenge it, and conceded to convince third parties

rightness opinion before or invalidity of the objector opinion on it based on the Moadat search for philosophical truth." This is making the pilgrims philosophical Deliberative building Mtnuya Tkablaa of conflict between exhibitors and contestants, so that the respective heads mechanisms persuasive private and specific rights and duties; this interview Almtnoah that will change ratifications or beliefs opposite, knowing that change something with the aim intended is what is termed as the "act"; and as long as desertification change Protect against or Belief interdependency between pilgrims in the opposite philosophical, this is determined by the pilgrims as a reactant process. Thus, Dr. Taha Abdel-Rahman concluded that each explanatory speech is based on the "interview" and the "reaction" directed is called a "debate." This definition is based on the fact that the "viewer" was an opponent or objector, and that his presentation or objection had a legitimate objective effect in endorsing others He was an opponent or an opponent.

Based on the above, I thought that my study about what Dr. Taha Abdel Rahman wrote in his book "The Origins of Dialogue and the Renewal of the Science of Speech", that the pilgrims philosophical deliberative image of the Islamic debate.

Keywords: pilgrims, dialogue, debate, speech, philosophical, deliberative, debate.

يعد **الحجاج** مجالاً مهمًا وأساسيًا من مجالات التداولية، «وهو ينبثق من حقل المنطق والبلاغة الفلسفية، يرتبط مفهومه بالفعل، وهو بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة، بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما، وبالتالي، يقوم مفهومه- كما يبدو- على صناعة الجدل والخطابة. بل إنّ من الدارسين حديثا من عدّه خطابة جديدة، لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة»[1].

وعليه، يرى الدكتور طه عبد الرحمن أن الحجاج هو «فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيًا في إنشاء معرفة علمية، إنشاءً موجَّها بقدر الحاجة، وهو أيضًا جدلي لأنّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة، كأن تُبنى الانتقالات فيه، لا على صور القضايا وحدها كما هو شأن البرهان، بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها أيما اجتماع، وأن يَطْوَى في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والكثير من النتائج، وأن

يُفْهِم المتكلم المُخَاطَب معانِيَ غير تلك التي نطق بها، تعويلاً على قدرة المُخَاطَبِ على استحضارها إثباتًا أو إنكارًا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم، وكأن يعتمد فيها على صور استدلالية تأخذ بمبدإ التفاضل و"التراتب"، وتجنح أحيانًا إلى التناقض الذي لا تحس فيه خروجًا عن حدود المعقول»[2].ويفهم من هذا التعريف أنّ الحجاج هو طريقة عرض الحجج وتقديمها لمعالجة المشكلات الكلامية، وهو يقوم على المواجهة بين المُخَاطِب والمُخَاطَب.

تعريف الحجاج: **أ- لغةً**: يقال حاججته أحاجه حِجَاجا ومحاجة حتى حججته:أي: غلبته بالحجج التي أدليت بها(...)،وقيل الحجة مادافع به الخصم من أجل إثبات رأيه، وقال الأزهري :الحجةالوجه الذي يكون به الظفر عندالخصومة (...) وجمع حجة :حُجَج ٍ وحِجاج . وحاجة محاجة و حِجاجا :نازعه الحجة، وحَجَّهُ يحُجُّهُ حَجًّا،غلبه على حُجَّتِهِ، واحْتَجَّ بالشيء :اتَّخَذَهُ حُجَّةً، وقال الأزهري: إنَّما سُميت حجّة لأنّها تُحَجُّ أي تُقْصَدُ، لأنّ القصد لها وإليها[3].

ب- اصطلاحًا: كما هو معلوم لدينا، فإنّ الخطاب الحجاجي يكون موجهًا للتأثير على آراء وسلوكات المُخَاطَب أو المستمع، وذلك من خلال جعل أيّ قول صادر من المُخَاطِب أو المُخَاطَبمدَعَّمًا بالحجج مقبولاً أو صالحًا (النتيجة) للتداول بين أفراد الجماعة اللُّغوية؛ أيْ إنّ الحجة تهدف إلى إثبات أو نقض قضية[4]، ومن بين السمات الأساسية للحجاج إمكانية النقض (الدحض) التي لا تتوفر في البرهان أو الاستنتاج بل تعتبر ميزة خاصة بالحجّاج[5]، وعليه ينبني الحجّاج على علاقة تربط بين حجّة أو عدة حجّج ونتيجة[6]، ولا يشترط أن تكون الحجة واحدة للدفاع عن فكرة أو رأي كلّ من المُخَاطِب والمُخَاطَب.

وتأسيسًا على ما سبق ذكره توصل الباحث والفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن إلى أن بناء الفعل الحجاجي لا يختلف عما يتطلبه الخطاب من ضرورة مراعاة هدف المرسل والمرسل إليه، وكذا العناصر السياقية الأخرى؛ لأنّ أيّ إقناع يتوسّل حتمًا بآليّات متعددة يتفاوت إدراكها والوعي بها من قبل المعنيّين، بل قد يستعين المتكلّم بعناصر يعلمها المخاطبون، لكنّهم لا يتوقّعون حضورها في مقامهم الخاصّ. من هنا كان نفاذ الخطاب مرتبطًا بتوصّل المتكلّم إلى إقامة علاقات عميقة ورهيفة بين آليات وعناصر لم يكن من المتوقّع حصول تلك العلاقات بينها، وبالتالي فعناصر المفاجأة الطريفة تعدّ من أبرز الخطط في مجالي الملفوظ

والمكتوب على السواء. فالحذق في توظيف الآليات التواصليّة واستغلالها بالطرق التي لم تكن معهودة يعدّ أمرًا مهمّا به تتجلّى براعة مُرْسِلُ الخطاب[7].

كما يرى أيضًا أنّ الحجاج الفلسفي التداولي هوفعالية استدلالية خطابية، مبناها عرض رأي، أو الاعتراض عليه، ومرماها إقناع الغير بصواب الرأي المعروض أو ببطلان الرأي المعترَض عليه استنادًا إلى مواضعات البحث عن الحقيقة الفلسفيةوهذا مما يجعل الحجاج الفلسفي التداولي بناءً مثنويًا تقابليًّا يتواجه فيه عارض ومعترض، بحيث يتوجه فيه كلّ منهما بآليات إقناعية خاصة وحقوق وواجبات محددة؛ هذه المقابلة المثنوية من شأنها أنْ تغير تصديقات أو اعتقادات المتقابلين، علمًا بأنّ تغيير شيء ما بهدف مقصود هو ما يصطلح عليه باسم "الفعل"؛ وما دام التغيير التصديقي أو الاعتقادي متبادَلاً بين المتقابلين في الحجاج الفلسفي، فإنّ هذا الحِجَاج يتحددُ بوصفهِ عمليةُ مفاعلة.

وعند هذا المعطى بالذات توصل الدكتور طه عبد الرحمن إلى أنّ كلّ خطاب استدلالي يقوم على"المقابلة" و"المفاعلة" الموجهة يُسمَّى "مناظرة"؛ وينبني علي هذا التعريف أنّ "المناظر" من كان عارضًا أو معترضًا، وكان لعرضه أو اعتراضه أثر هادف مشروع في تصديقات غيره عارضًا كان أو معترضًا.

وبالتالي، فمنهج الفلسفة التداولية حسب رأي الدكتور طه عبد الرحمن هو المناظرة القائمة على الحوار والجدال والنقاش الحاد المدعم بالحجج والبراهين المنطقية، وهذا ما نلمسه من خلال قوله: "ولا يزال المرء فيلسوفًا ما ناظرَ غَيْرَه أو ناظره غيرُه، فإذا صار إلى إنكار مناظِرِهِ، ونظر بمفرده وبرهن، قَصُرَ عن غرضه واغتصب ما لسواه (أي ذهب مذهب الرياضي والمنطقي).

وعند هذا المعطى بالذات، ارتأيت أن تكون دراستي حول ما ذهب إليه الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، على أنّ الحجاج الفلسفي التداولي صورته المناظرة الإسلامية.

ولقد وردت كلمة مناظرة في القاموس المحيط « من نظره: بصره وسمعه ونظر إليه نظرا ومنظرا ونظرنا ومنظرة وتنظارا، تأمله بعينه، والناظر، العين أو النقطة السوداء في العين، وتناظرا: أي تقابلا، والتناظر: التراوض في الأمر، وناظره صار نظيرا له، وناظر فلان بفلان جعله نظيره»[8]وإذا ما عدنا إلى مفهوم هذه اللفظة من الناحية الاصطلاحية ، فإنّنا نجد صاحب التعريفات يقول عنها:« هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبية بين الشيئين

إظهارًا للصواب»[9]، أي: إن المناظرة تقع بين ضدين لكل منهما ميزاته وخصائصه الخاصة به نحو قولنا: السماء والأرض، الجهل والعلم، الخير والشر.

وبناءً على ذلك، فإن المناظرة تقتضي «أنّه لا خطاب إلاّ بين اثنين، لكل منهما مقامان هما مقام المُخَاطِب ومقام المُخَاطَب ووظيفتان هما وظيفة العارض ووظيفة المعترض»[10].وعليه يجب أن يكون خطاب المناظرة «مفعما بجملة من الأدلة والبراهين والحجج التي يحاجج بها الضد نظيره بغية الدفاع عن آرائه والإحاطة بما يذهب إليه هذا الأخير (الخصم)»[11]،ذلك«أن لكل منهما أهدافه ومعتقداته، ومخططاته الخاصة، كما يراجع كل منهما استراتيجيته وتكتيكه باستمرار بناء على ما قاله الآخر»[12].

وعليه، يجب أن يعتمد طرفا المناظرة على تنظيم وترتيب أدلتهما وحججهما، كما يجب عليهما أيضًا إفراغها في قالب لغوي منمق يجذب السامع، ويبعث الرغبة في نفسه لإكمال المناظرة حتى يصل إلى نقطة إنهاء هذا الخلاف بين طرفيها، إلاّ أنه قد يتبادرإلى ذهن السامع سؤال مفاده: ما هوالفرق بين الحوار والمناظرة؟

فتكون الإجابة: أن الأول (الحوار) هو«تبادل الكلام بين اثنين أو أكثر»[13]،أو هو« نمط تواصل، حيث يتبادل ويتعاقب الأشخاص على الإرسال والتلقي»[14]، أما الثاني (المناظرة)، فهومجادلة ونقاش بين خصمين، يسعى كل منهما إلى التأثير على الأخر معتمداً على جملة من الأدلة والحجج، كما أنّ المناظرة تتّبع طرقا في الدلالة والاستدلال تعدّ أقل قيودا وأعم حدودا من غيرها من الطرق التي يتوصل بها إلى المعارف المطلوبة لهذا يمكننا أن نعتبر« المناظرة أو الجدل لونًا من ألوان الخطابة الاستدلالية»[15]، حيث يتبارى المتناظرون في إبراز قدراتهم الجدلية والخطابية، وعليه، «تغدو المناظرات ضربًا من الحجاج البلاغي الذي يهدف إلى كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من وجهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معًا، حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب»[16]،وعليه يمكننا القول: إن كل مناظرة هي حوار، وليس كل حوار مناظرة، يبدو أن فن المناظرة[17]به خصائص جمعت بين فن القول، واستحضار المخيال، ومخاطبة الأخر، بالإضافة إلى روائع التشويق، ومن هنا يتضح لنا« أنّ المناظرة لم تكن قط في يد المسلمين العرب أداة للاشتغال بالمنازعة المقصودة لذاتها، وإنّما كانت وسيلة من وسائل تنمية المعرفة الصحيحة وممارسة العقل السليم؛ ولما كانت هذه التنمية المعرفية والممارسة العقلية مطلوبتين في مختلف المجالات»[18]،ولا عجب أن نجد الأدباء العرب في أعمالهم يتوسلون

بالمناظرة إجراء ممارسة حوارية الغرضُ منها الاشتراك في الوصول إلى الحق»[19]،وهكذا يغدو كلّ خطاب استدلالي يقوم على المقابلة والمفاعلة الموجهة والمدعمة بالحجج والبراهين "مناظرة".

وبالتالي، يرى الفيلسوف طه عبد الرحمن أنّ منهج الفلسفة التداولية ليس إلاّ مناظرة، إذا ما صح أنّ ما يميز الفلسفة عن غيرها من أصناف المعرفة الإنسانية ويمنحها منهجية مخصوصة هو أسلوب "المناظرة"، صح معه بالضرورة أنّ كلّ قطاع معرفي أيًّا كان من جهة، وانتهاج الفلسفة لأسلوب المناظرة من جهة أخرى، مثل صدقهما على الإنتاج الفكري الإسلامي، إذ لم يطبّق ولم يعمَّم منهج على جميع مجالات المعرفة مثلما طُبِّق وعُمِّم منهج المناظرة في هذا التراث، فأكسبه خصبًا فلسفيًا متميّزًا[20]، فقد أقيمت مجالس للمُحاورة عُرِفت بـ"المناظرات"، والتي أفرزت بدورها إنتاج العديد من التآليف على طريقة المناظرة في مختلف الميادين.

وهكذا ظهرت خطابات كثيرة تقر بالمناظرة منهجًا فكريًا نذكر على سبيل المثال لا الحصر: "خطاب التهافت"، وخطاب التعارض"، و"خطاب الرد"، و"خطاب النقض"، وغيرها، بل ويذهب الفيلسوف طه عبد الرحمن في كتابه إلى أبعد من ذلك فيقول: حيثما وُجِدت مذاهب ومدارس واتجاهات في مجال من مجالات المعرفة الإسلامية، كانت المناظرة طريقة التعامل بينها، وهذا شأن الفقه (باب الخلاف)، والنحو (باب القياس)، والأدب (النقائض)[21]، فلم تكن المناظرة حسب طه عبد الرحمن وجه تفاعل التيارات التي تنتسب إلى قطاع علمي واحد فحسب، بل طبعت أيضًا التعامل بين أهل العلم من قطاعات مختلفة كالمناظرة التي وقعت بين أبي سعيد السيرافي النحوي ومتَّى بن يونس الفيلسوف.

<u>مكانة المناظرة في الإنتاج الإسلامي</u>:يرى الدكتور طه عبد الرحمن أنّ اللغة تحمل سمات فكر من يتكلمونها، والمتأمل لمعجم المناظرة العربية يدرك حتمًا مدى الثراء الذي تتميز به على مستوى التداول، فإنْ دلّ ذلك على شيء، فإنّما يدل على تداول المسلمين لهذا المنهج الجدلي والتزامهم به أكثر من غيره في تحصيل المعرفة وتبليغها، ونذكر من هذا المعجم، لا على سبيل الحصر، وإنّما على سبيل المثال، مجموعة من المفردات التالية، وهي بالإضافة إلى لفظي المناظرة، والمذاكرة: المباحثة، والمجالسة، والمفاوضة(في معناها القديم)، والمراجعة، والمطارحة، والمساجلة، والمعارضة، والمناقضة، والمداولة، والمداخلة، وغيرها.

والجدير بالذكر أيضًا أنّ النظار المسلمين وضعوا لمنهج المناظرة شروطًا وقوانين تنافس في استفائها وضبطها وصرامتها وترتيبها ضوابط المنطق وأحكامه، باعتباره علما لقوانين العقل؛ ولا أدلّ على ذلك من أنّهم استخدموا طرق الجدل في الاستدلال على قضايا من صميم المنطق نفسه، وبهذا فتحوا الطريق أمام مشروع رد المنطق إلى الجدل، وهذا يترتب عنه حسب رأي الفيلسوف طه عبد الرحمن أنّ النظر العقلي هو في أصله مناظرة، وأنّ ما يدعى بالعقلانية إن هو إلاّ مُعَاقَلَة[22].

وعند هذا الصدد يشير الفيلسوف طه عبد الرحمن إلى أنّ أغلب المعارف الإسلامية التي تأخذ بمسلك المناظرة الجدلي، تتفاوت في درجة التقيد به على قدر الافتقار إله بمُقْتَضى نوعية شروطها المعرفية، ولم يأخذ أيُّ مجال علمي إسلامي بهذا المنهج مثلما أخذ به "علم الكلام"، هذا العلم الذي قام على تواجد العقائد سواء بين أصحاب الملة الواحدة أو بين أصحاب الملل المختلفة، حتى إنّنا نرى أنه أحق أن يدعى "علم المناظرة العقدي" من أنْ يدعى باسم آخر، فيكون "رجل الكلام" أو "المتكلم" هو من قام بالشروط الآتية[23]:

1-**معتقدًا:** يقوم اعتقاده في التسليم بما ورد في كتاب الله والسنة المحمدية تسليم المكلف من لدن الشرع، واعتبارًا لهذا الجانب سُمِّيَ علم كلام بـ"علم التوحيد"، وعلم الموجود بما هو موجود" على قواعد الإسلام.

2-**ناظرًا:** لما كان النظر هو طلب الفكر لشيء مخصوص سالكًا إليه طرقًا مخصوصة يعتقد أنّها قادرة على الظفر به، فإنّ المتكلم يطلب تعقل أصول العقيدة وتعقيلها، وذلك بأن يسلك فيها سبل الاستدلال والإقناع، مما أدى إلى تسمية "علم الكلام"، بعلم النظر والاستدلال.

3-**محاورًا:** مقتضى المحاورة أنّه لا خطاب إلاّ بين اثنين، لكلٍّ منهما مقامان هما: مقام المخاطِب، ومقام المخاطَب ووظيفتان هما: وظيفة العارض، ووظيفة المعترض، وقد كانت هذه الصفة الحوارية للمتكلم داعيًا إلى حمل الكلام على معنى "المكالمة"، والمناظرة وإلى التسمية "علم الكلام" بعلم المقالات الإسلامية.

<u>أصول منهج المناظرة:</u>لما كان غرض المناظرة أو البحث كما أُطلق عليها إظهار الصواب، فقد حُدِّدت لها شروط عامة هي الآتية:

1- لا بد لها من جانبين.
2- لا بد لها من دعوى.
3- لا بد لها من مآل يكون بعجز أحد الجانبين.

4- لكل من الجانبين آداب ووظائف.

وتتجلى هذه الشروط في المناظرة بوصفها تقوم على الكلام؛ أي إنّها تقوم على المحاورة، ومن هنا كانت لمرتبة المحاورة شروط معتبرة...، مجملها أنّ المتحاورين يتعاونان بحيث إنّ أحدهما يدعي دعوى معينة مثبَتة أو غير مثبَتة، في حين ينهض الثاني بالجواب عليها مبطلاً دليلها أو مطالبًا بالدليل عليها، يَطْلُبان تحقيقهدف مخصوص هو الوصول إلى الصواب[24]، وفي أدنى الأحوال الوصول إلى الاتفاق في مسألة ما.وتجب الإشارة ها هنا إلى أنّ هذه الشروط تهدف إلى جعل التخاطب الذي يقوم على قانون "علم الكلام" ينبغي أن ينبني على أصلين أساسيين هما كما حددهما الدكتور طه عبد الرحمن[25]:

-**أولهما**: أنّ المتكلمَيْن عاقلان.

-**ثانيهما**: أنّهما "معاقلان"، أي أنّ الواحد منهما يشرك الآخر في تعقيل المسألة المطروحة للمناقشة. وهنا يبسط طه عبد الرحمن القول في صفة "العاقلية" ثمّ في صفة "المعاقلة" المميزتين "لعلم الكلام".

أ-خصائص العاقلية الكلامية: يذهب الدكتور طه عبد الرحمن إلى القول: إنّ من أهم الخصائص التي تتميّز بها **العاقلية الكلامية** هي "العاملية"، فيرى أنّ كلّ متكلم هو "عامل" لاستجابته للشروط التالية:

1- أنّ سلوكه التخاطبي يتحدد بقصد معين، وكلّ سلوك قاصد يُعتبر عملاً بحيث يضبطه المبدأ التالي: "ليكن سلوكك موجَّهًا بهدف معين".

2- أنّ هذا العمل يستند إلى أسباب معينة بحيث يمكن صوغ المعيار التالي: "ليكن عملك مصونًا عن العبث".

3- أنّلا هذا العمل لا إكراه ولا إحراج فيه، ويحكمه المبدأ التالي: "ليكن فعلك مرادًا لك، لا لغيرك دونك".

4- أنّ هذا العمل يطلب الحسن، وينفي القبيح، بحيث يصوغ المبدأ التالي: "لا تفعل فعلاً يجلب لك المضرة أكثر مما يجلب لك المنفعة"

5- أنّ عمل المتكلم يتصف بالتعقل، ويحدد للتعقل شرطين هما:

*- أنّ يكون بمقدوره تحقيق الهدف المطلوب.

*- أن يستعمل لتحقيقه أنسب وأنفع الوسائل بحيث يصاغ مبدأ التعقل كما يلي: "ليكن مطلبك مقدورًا لك، وليكن تحصيلك له بأقرب الطرق".

ب-**خصائص المعاقلة الكلامية**: في حين يرى أنّ خصائص **المعاقلة الكلامية**تقوم على أمرين هما:

1- مبدأ الإقرار للغير بنفس الحقوق والواجبات المؤسِّسة "للعاقلية" أو "العاملية".

2- مبدأ اتباع قوانين سلوكية مشتركة.

وهنا يخلص الباحث إلى أنّ المعاقلة بهذا الوصف هي "المعاملة" بمعنيين هما:

*- فهي بمعنى أنّك تأتي عملاً، وتقر لغيرك بأن يأتيَ مثله،

*- كما أنّها قد ترد بمعنى أنّك تتبع نفس المعايير الأخلاقية والقواعد المنطقية التي يتبعها غيرك.

والظاهر أنّ صاحب الكتاب توصل من خلال تحليله "للعاقلية" و"المعاقلة" في الكلام إلى أنّ من مميزات المنهج العقلي في "الكلام" بصفة عامة هي:

1- أنّه منهج عملي، إذ تصبح العقلانية صفة متصلة بالقيم السلوكية والخلقية.

2- أنّه منهج يقوم على "المفاعلة"، حيث إنّ "العقل" ليس ذاتًا قائمة في المتكلم، وإنّما صفات تُكتسب بالتعاون والتشارك مع الغير على إظهار الصواب وتحقيق الاتفاق.

وتجدر الإشارة إلى أنّه في آخر دراسته توصل إلى أنّ «"العقلانية" الكلامية ليست مجموعة من المضامين المعرفية مستقلة بذاتها مميزة لأهل الكلام بقدر ما هي جملة من المناهج التي تتسم بـ "الفعل" و"المفاعلة في تحصيل المعرفة، وليس رجمًا بالغيب أن نقول بأنّ تحديدنا للمنهج العقلي الكلامي بصفتي "الفعل" و"المفاعلة" قد يجري على قطاعات أخرى من الإنتاج الإسلامي، وذلك أنّ تصور "علماء الإسلام" للعلم يجعله دائمًا **باعثًا** على **العمل** داخل الجماعة، ومُقَيِّدًا للعاملين؛ و"العقلانية"، كما وصفناها، ليست سوى هذا الاقتران المنهجي بين المعرفة من جهة والعمل بها داخل الجماعة من جهة أخرى»[26]، إلاَّ أنّ هذه النتيجة تظل عنده مجرد فَرضِية الواجب تمحيصها في أبحاث مستقبلية.

<u>أخلاقيات المناظرة</u>:يرى الدكتور والفيلسوف طه عبد الرحمن أن من شروط المناظرة جملة من الآداب التي ينبغي أن يتخلق بها كل مناظر، نذكر بعضها على سبيل المثال[27]:

أ-أن يكون المتناظران مُتقاربين معرفة ومكانة، حتى لا يؤدّي استعظام أحدهما الآخر أو استحقاره له، إلى أن يضعف عن القيام بحجته، أو يتهاون فيه.

ب- أنْ يُمهل المناظِرُ خصمه حتى يستوفي مسألته، كي لا يفسد عليه توارد أفكاره، وحتى يفهم مراده من كلامه، كي لا يُقوّله ما لم يقل.

ج- أن يتجنب المناظِرُ الإساءة إلى خصمه بالقول أو الفعل بغيةَ إضعافه عن القيام بحجته، ومن ذلك قلة الإصغاء إليه، والسخرية منه، وتخجيله بفضح عيوبه، وتشنيعه بالقدح في الكلام، والتطاول عليه بالتنقيص والشتم.

د- أن يقصد المناظر الاشتراك مع خصمه في إظهار الحق والاعتراف به، حتى لا يتباهى به إذا ظهر على يده ولا يعاند فيه إذا ظهر على يد خصمه.

هـ- أن يتجنب المناظر محاورة من ليس مذهبه إلاَّ المضادة، لأنّ من كان هذا مسلكه لا ينفع معه الإقناع بالحجة.

خلاصة:توصل الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه الموسوم بعنوان: "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"إلى جملة من النتائج نوجزها في ما يلي:

1- إنّ المناظرة الإسلامية، وإن استعانت في تفصيل قواعدها ببعض مقررات الجدل اليوناني، فإنها لم تكن قط في يد المسلمين العرب أداة للاشتغال بالمنازعة المقصودة لذاتها، وإنّما كانت وسيلة من وسائل تنمية المعرفة الصحيحة وممارسة العقل السليم، ولما كانت هذه التنمية المعرفية والممارسة العقلية مطلوبتين في مختلف المجالات، لاعجب أن نجد المسلمين يتوسلون بالمناظرة عند البحث في هذه المجالات، حتى إنّها غلبت على المناهج الأخرى، بل كادت أن تستقل بزمام المعرفة في بعض شعب التراث.

2- أنّ المناظرة تتَّبع طرقًا في الدلالة والاستدلال تُعدُّ أقل قيودًا وأعم حدودًا من غيرها من الطرق التي يُتوصل بها إلى المعارف المطلوبة، بحيث يكون نطاق عملها أوسع من نطاق عمل غيرها، فيقع الالتجاء إليها في مجالات المعرفة التي لا تطيق التقنين الصارم، فضلاً عن المجالات التي تطيق مثل هذا التقنين.

3- إنّ المناظرة هي ممارسة حوارية الغرضُ منها الاشتراك في الوصول إلى الحق، لأنّ الحجاج يُسهم في توسيع العقل وتعميق مداركه بما لا يوسِّعه ولا يُعمِّقه النظر الذي لا جدال ولا حوار معه؛ إذ الحوار هو بمنزلة نظر من جانبين، وليس النظر من جانب واحد كالنظر من جانبين اثنين؛ فمعلوم أنّ العقل يتقلب بتقليب النظر في الأشياء، وأنّه على قدر

تقلبه، يكون توسُّعه وتعمُّقه؛ والعقل الذي لا يتقلب ليس بعقل حي على الإطلاق، والعقل الذي يبلغ النهاية في التقلب هو العقل الحي الكامل.

4- إنّ المناظرة الإسلامية هي: عبارة عن جملة من البُنى الدلالية والاستدلالية، أي عبارة عن موضوع ذي طبيعة لغوية منطقية، وهكذا، لاحظ الباحث طه عبد الرحمن أنّ الفلسفة ذات المنزع "البرهاني" لا تُفلح في التخلص من سلطان الخطاب الطبيعي ولا تستفيد من ثرائه، فوجب طلب فلسفة توظف جميع وسائل هذا الخطاب التبليغية وتحقق الإمكانات الفكرية الكامنة فيه وفق مقتضيات المجال التداولي، ولقد وسم على هذا الاتجاه بـ"الفلسفة التداولية" التي تجد بعض عناصرها في ممارسة المناظرة، هذه الممارسة التي تفيدنا حقيقة تداولية كبرى وهي: أنّه لا كلام إلاّ بين اثنين ولو كان كلامُ المرء مع نفسه، ولا اثنين إلاّ عارض ومُعترض، ولا عارض إلاّ بدليل، ولا معترضَ إلاّ لطلب الصواب، ولا طلبَ للصواب إلاّ بجملة من القواعد .

الهوامش:

1- د. خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص105، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 2009.

2- د. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص64، المركز الثقافيالعربي، المغرب، ط02، 2000.

3- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم :لسان العرب، مادة حجج، ص226، 227، دارصادر،بيروت، د/ط، د/ت.

4- الحواس مسعودى :البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورةالنمل نموذجا، ص 329، مجلة اللغة والأدب العربي،العدد١٢،ديسمبر١٩٩٧م.

5- يراجع نفس المرجع، ص330.

6- MOESCHLER (J): Argumentation et conversation, Hatier, Crédif, France, Février١٩٨٨, p٤٦.

7- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص469، 470،مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط01، 2004.

8- الفيروز الأبادي الشافعي، القاموس المحيط، المجلد الثاني، ص237، 238، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1995.

9- الشريف الجرجاني، التعريفات، ص224، مكتبة القرآن الكريم للطبع والنشر والتوزيع، مصر، د/ط، د/ت.

10- د. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المرجع نفسه، ص71.

11- يراجع محمد عبيد الحمزاوي ومحمد زكي العشماوي، فن الحوار والمناظرة في الأدبين الفارسي والعربي في العصر الحديث، دراسة مقارنة، ص05، مركز الإسكندرية للكتاب، ط01، 2001.

12- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص78، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط02، 2006.

13- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص87، المركز الثقافي العربي، لبنان- المغرب، ط01، 1403هـ - 1983م.

14- قصي عدنان سعيد الحسيني، فن المقامات بالأندلس، نشأته وتطوره وسماته، ص82،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 1419هـ - 1999م.

15- يراجع الدكتور محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص203، دار العودة، بيروت، ط01، 1982م.

16- د. مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ص100، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د/ط، 2010م.

17- يرى بعض النقاد أنّ المناظرة هي جنس أدبي قائم بذاته في أدبنا العربي، يراجع الدكتور عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، ص113، دار الطليعة، بيروت، ط01، 1983م.

18- الدكتور طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،المرجع نفسه، ص21، 22.

19- المرجع نفسه، ص22.

20- المرجع نفسه، ص68.

21- المرجع نفسه، ص68.

22- المرجع نفسه، ص69، 70.

23- المرجع نفسه، ص70، 71.

24- المرجع نفسه، ص154.

25- المرجع نفسه، ص154، 155، 156، 157.

26- المرجع نفسه، ص157.

27- المرجع نفسه، ص74، 75.

*** *** ***